هوامش

اعتاد قادة الصين إطلاق شعارات كبيرة تدعم بناءهم دولة اشتراكية حديثة، لكن حديث الرئيس شي عن تحقيق «الرخاء المشترك» قد يرتبط بتطلعات للهيمنة على شركات التكنولوجيا

مسنّان أمام متجر لبيع الذهب في شنغهاي (جانغ بينغ/ Getty)

الرخاء المشترك
مصطلح يؤرق شركات الصين

بكين ـ **علي أبو مريحيل**

قبل فترة، صرّح الرئيس الصيني شي جين بينغ، بأن بلاده تهدف إلى تحقيق «الرخاء المشترك» المتمثل في التوزيع العادل للثروة بين أفراد المجتمع، معتبراً ذلك «أمراً أساسياً لتعزيز الرفاهية في إطار دولة اشتراكية حديثة». جاءت تصريحات شي في كلمة ألقاها أمام اللجنة المركزية للشؤون المالية والاقتصادية في الحزب الشيوعي الصيني، ودعا فيها إلى إنشاء نظام يعتني في شكل أكثر إنصافاً بأولئك الذين لم يصبحوا أثرياء. ويعيد استخدام مصطلح الرخاء المشترك إلى ذاكرة الصينيين خطابات أدلى بها الزعيم الراحل ماو تسي تونغ قبل إطلاق شرارة الثورة الثقافية في ستينيات القرن العشرين، وأطلقها بذريعة التخلص من الطبقة البرجوازية، ما يثير مخاوف رجال أعمال من تكرار شي للتجربة، خصوصاً أن حديثه تزامن مع حملة حكومية شرسة استهدفت قطاعات خاصة عدة، مثل: التكنولوجيا والتعليم والعقارات والتجارة الإلكترونية. وبالرغم من عدم الوضوح كيف يمكن أن يترجم المصطلح إلى فعل، راجت تكهنات باستهداف شركات كبيرة من أجل حثها على التنازل طوعاً عن جزء كبير من رؤوس أموالها لحساب صناديق سيادية، ما دفع شركة «تينسنت» العملاقة للتكنولوجيا إلى الإعلان أخيراً عن إنشاء صندوق «الرخاء المشترك» بقيمة 50 مليار يوان (7,7 مليارات دولار) للمساهمة في مساعدة أصحاب الدخول المتدنية، وتعزيز التنمية المجتمعية. لكن مراقبين رأوا أن شي لم يذهب إلى حدّ «اقتراح سرقة أموال من الأغنياء لتقديمها إلى الفقراء، على غرار نموذج رواية روبن هود، بل دعا إلى إنشاء نظام عملي يسمح بتوزيع الدخل في شكل عادل بين طبقات المجتمع». واعتبر آخرون أن ذلك غير ممكن بسبب تفاوت الكفاءات والقدرات بين الأفراد، إذ ليس من المنطق مساواة فلاح يعمل في حقل بمهندس يعمل في شركة لتكنولوجيا المعلومات، إلا إذا أراد الرئيس الصيني بالفعل إشعال ثورة ثقافية جديدة.

حملة متجددة

ليست هذه المرة الأولى التي يستخدم فيها قادة الحزب الشيوعي مصطلح «الرخاء المشترك»، ففي نهاية سبعينيات القرن العشرين، قال الزعيم الصيني الراحل دينغ شياو بينغ إن «هدف الاشتراكية هو الرخاء المشترك، وجعل عدد قليل من الأشخاص أثرياء يساعد في تحقيق التنمية وتعزيز الكفاءة الاقتصادية على المدى البعيد. لكن ثبت لاحقاً أن هذه السياسة تسببت في خلق فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء، ما أثقل كاهل الحكومات المتعاقبة في معالجة التفاوت الطبقي والمناطقي في الصين، حيث ازدهرت المدن الساحلية في الشرق، في مقابل تراجع مناطق الريف الغربية التي تشهد تنمية غير متوازنة. من هنا يرى محللون أن «خطاب الرئيس الحالي شي يضع حداً للخلل، ويعيد هيكلة الاقتصاد على أساس التوزيع العادل للدخل بما يسمح لأشخاص جدد بأن يصبحوا أثرياء أيضاً، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة أن تتركز الثروات الجديدة في الريف والمناطق التي لم يصل إليها قطار التنمية». ويرى هؤلاء أنه بعدما نجحت الصين في الوصول إلى الكفاءة الاقتصادية بدأت تتجه نحو تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية، باعتباره جوهر الدولة الاشتراكية وأساسها، فضلاً عن تأكيد بعض الدول الرأسمالية هذه القيم، وبالتالي ليس منطقياً أن تتخلف الصين الشيوعية عن ركب الدول الساعية إلى تحقيق هذا المبدأ الاجتماعي.

مخاوف مشروعة

وحول المخاوف التي يثيرها مصطلح الرخاء المشترك، يقول الباحث في معهد «كولون» للدراسات الاستراتيجية، مارتن يوان، إنها «مخاوف مشروعة لدى أصحاب شركات ورجال أعمال كُثر، خصوصاً أن هؤلاء لديهم تجارب سابقة مع استخدام الحزب الشيوعي الإيديولوجيا لقمع القطاع الخاص والهيمنة عليه بذرائع مختلفة». وأضاف في حديث مع «العربي الجديد»، بأن الأيام القليلة المقبلة ستكشف عن الطريقة التي سيتم فيها تطبيق الرخاء المشترك عملياً، وتوقع أن تتضمن اقتطاع أجزاء كبيرة من ثروات الشركات والأشخاص وإيداعها في صناديق تديرها وتشرف عليها الدولة، دون أن تنقل بالضرورة الأموال المحصلة إلى طبقات اجتماعية مهمشة، لأن الخطة تهدف، إلى فرض الهيمنة على هذه المؤسسات خاصة التكنولوجية التي تملك قاعدة بيانات كبيرة للمستخدمين، الأمر الذي تعتبره بكين مصدر تهديد لسلطتها ونفوذها.

من جهته، يقلل عميد كلية الاقتصاد السابق في جامعة جينان، دونغ يي، من مخاوف الطبقة البرجوازية. ويقول إن «الأمر ليس إلا توجهاً حكومياً يهدف إلى مساعدة الأفراد الأقل حظاً في الحصول على فرصة للثراء، من دون أن يعني ذلك إجبار الأغنياء على التخلي عن ثرواتهم». يضيف متحدثاً لـ «العربي الجديد»: «لا تتعارض فكرة الرخاء المشترك مع جمع وتعزيز الثروات، ولن تعود الصين إلى حقب سوداء شهدت إذلال الإقطاعيين وسحلهم في الشوارع وضربهم في الميادين العامة، فقط لأنهم أصبحوا أغنياء أكثر مما يجب». وعن سبل تحقيق ذلك، يقول دونغ يي: «درس الحزب إجراءات عدة سابقاً مثل تعديل أنظمة الضرائب والرعاية الصحية والاجتماعية، علماً أن فرض ضرائب على حد معين من الثروة سيساهم في تقليص تركيز الثروات، وسيدخل مبالغ طائلة في الصناديق السيادية للدولة، ما يسمح بدعم الدولة برامجها لتحسين الرعاية الصحية في الأرياف التي تكبد المواطنين تكاليف باهظة، إلى جانب دعم مشاريع خاصة صغيرة تدر أموالاً كبيرة على أصحابها».

وكان تحرير الاقتصاد الصيني في مطلع ثمانينيات القرن العشرين، خلق طبقة وسطى تضم حوالي 350 مليون شخص، وساهم لاحقاً في بروز حوالى 5,30 ملايين مليونير تزيد ثروة كل منهم عن مليون دولار. واستحوذت الصين على نحو 78 في المائة من أصحاب المليارات في القارة الآسيوية العام الماضي، بزيادة 12 في المائة عن العشر سنوات الماضية، وبمتوسط ثروة بلغ 3,9 مليارات دولار للملياردير الواحد. ورغم أن معالجة الفجوة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء في الصين خطوة مرحب بها، يحذر أكاديميون من تداعيات ذلك على المجتمع الصيني، سواء على صعيد الفوضى كما حدث خلال الثورة الثقافية، أو على صعيد بروز طبقة برجوازية جديدة من أصحاب الملايين تفاقم الأزمة، وتكرّس المظاهر الرأسمالية في الدولة الاشتراكية.

باختصار

«الرخاء المشترك» لا يهدف إلى سرقة أموال من الأغنياء لتقديمها إلى الفقراء، بل إلى إنشاء نظام عملي يسمح بتوزيع الدخل بعدالة.

■■■

يرى محللون أنه بعد نجاح الصين في الوصول إلى الكفاءة الاقتصادية بدأت تتجه نحو تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية.

■■■

رجال أعمال كُثر اختبروا سابقاً استخدام الحزب الشيوعي الأيديولوجيا لقمع القطاع الخاص، والهيمنة عليه بذرائع مختلفة.

وأخيراً
«الشِّعر هو السُّلطة»

نجوى بركات

«الشعر هو السلطة»، جملة أطلقها ذات يوم الشاعر الروسي، أوسيب مندلشتام (1891-1938) ، الذي غدا أكبر الشعراء الروس في القرن العشرين، باعتراف كبار كتّاب عصره، من أمثال فلاديمير نابوكوف، بول سيلان وريني شار. لكنّه، وللأسف، عاش الجحيم الستاليني إثر انتشار قصيدةٍ هجائيةٍ له، قرأها في دوائر مقفلة، بعنوان «جَبَليّ الكرملين»، وفيها هاجم الطاغية ووصفه بالقسوة والجلافة («أصابعه الغليظة ضخمة كديدان»)، فكان أن قبض عليه مرتين، إلى أن قضى جوعا وبردا وإنهاكا، فرُمي جثمانُه في حفرة مجهولة، فوق أجساد أخرى، كانت تخرّ بردًا ويأسًا.

في كتاب بعنوان «ضد كل أمل»، قدّم له الشاعر الروسي، جوزف برودسكي، الحائز على نوبل للآداب، تروي زوجة الشاعر، نادِجدا مندلشتام، مذكّراتها عن السنوات الرهيبة تلك. ومع أنها كتبت شهادتها عام 1964، إلا أن الكتاب لم ير النور قبل أن يبلغ، مخطوطةً وسرّا، الولايات المتحدة، فكان أن نُشر في الغرب، خلال السبعينيات، تحت عنوان «ذكريات»، ما ساهم، إلى حدّ كبير، بالتعريف بالشاعر عالميا. تبدأ المذكرات عام 1934، عندما قُبض على أوسيب أول مرة، فحاول الانتحار، لكن تدخّل المثقف والسياسيّ السوفييتي، نيكولاي بوخارين، لصالحه، خفّف العقوبة، وحوّلها إلى منفى سُمح له باختياره. تروي نادِجدا سنوات المنفى الثلاث في فورونيج، والتي انتهت بوفاة الشاعر داخل مقصورة قطار كان ينقله إلى سيبيريا، ذات يوم (27 ديسمبر؟) من العام 1938. وكان قد قُبض عليه للمرة الثانية، وصدر بحقّه الحكم بقضاء خمس سنواتٍ من الأشغال الشاقة، في أحد معسكرات الاعتقال في سيبيريا. ولم يرأف لمندلشتام تأليفُه قصيدةً كتبها خصيصا لستالين، إذ اتّهمته المؤسسة الأدبية بآرائه المعادية للسوفييت، وذلك إثر الشروع في عملية التطهير الكبرى للقضاء على كل معارضة.

والحال أن أوسيب ماندلشتام لم يكن في الحقيقة مخلصا لزوجته التي اقترن بها عام 1922 في مدينة كييف، في أوكرانيا، حيث كانت تعيش مع عائلتها، قبل أن ينتقلا إلى العيش في موسكو. وقد حكي الكثير عن مغامراته مع أكثر من واحدةٍ في أثناء زواجه. وبالتحديد عن ارتباطه بعلاقتيْ غرام متباعدتين، كادتا أن توديا بزواجه. ومع ذلك، اختارت نادِجدا مرافقته إلى المنفى، حيث أقامت في ظروف حياتية صعبة جدا، وعرفت القلّة والخوف، واجتهدت لكي تحفظ قصائده وتخفي مخطوطاته الورقية، وهو ما استمرّت تفعله، بعد إعادة الاعتبار لمندلشتام، من خلال إعادة ترتيب قصائده ونشرها. ومما يلفت النظر في كتاب «ضد كل أمل» الغياب شبه الكامل لأنا كاتبته التي قلّما تكلّمت عن نفسها أو عن معاناتها. على العكس، نراها مركّزة على مُقاساة زوجها، بالتوازي مع عذابات جيلٍ بأكمله من المثقفين والكتّاب والمبدعين والناشطين السياسيين الذين حوصروا واضطهدوا وحوربوا وماتوا ظلما ودفاعا عن حريّة آرائهم وأفكارهم. أجل، لقد خنق ستالين الثقافة والإبداع الروسيّين، وقام بإخضاع شعوبٍ بأكملها وتخويفها، فقط ليسود هو.

> يُرمى ستالين وأمثالُه من القتلة والمستبدّين إلى مزبلة التاريخ، ويرتفع نجم الشعراء والمبدعين عالياً

تقول: «بغضّ النظر عن الأشخاص الذين أُرغموا على «التعامل»، كان المتطوعون جحافل»... «سمعتُ أحدَ مفتّشي وزارة التعليم الرسمي يطلب من المعلّمين التوقّف عن إرسال الوشايات والتقارير، ويُنذرهم بأن الرسائل المجهولة ما عادت حتى تُقرأ». وبالفعل، تشكّل مذكّرات نادِجنا شهادة حية، بسيطة وعفوية، عن أكثر سنوات زوجها جِلكةً وخصوبة، وكذلك عن معاناة آخرين، من أمثال أخماتوفا، باسترناك، بوخارين وشلوفسكي، وإرغامهم على الصمت خلال العقدين 1920-1930. وفي الختام، يُرمى ستالين وأمثالُه من القتلة والمستبدّين إلى مزبلة التاريخ، ويرتفع نجم الشعراء والمبدعين عاليا. هكذا عرفنا أوسيب مندلشتام، وتهافتْنا على قراءة مجموعاته الشعرية والنثرية: «الحجر»، «تريستيا»، «قصائد»، «الطابع المصري»، «ضجيج الزمن»، «رحلة إلى أرمينيا»، وسواها ..

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**